الفصل السادس
لا تتخلــى عنــي

وقف حمزة مع شقيقته جومانة داخل غرفتها، وبدا عليه الغضب الشديد وقال:

_ ألم أقل لكِ. أدهم بالفعل أتفق مع ديما على الزواج، وتواعدوا على اللقاء غداً.

قالت ديما دهشة: وكيف عرفت؟

ابتسم حمزة بسخرية وقال: يبدو أنك نسيتي ما وظيفتي، وما الذي أستطيع فعله بنفوذي؟

قالت جومانة: وماذا ستفعل؟

برقت عيني حمزة وتملكها الشر وقال: ستعرفين غداً.

تملك القلق من جومانة وقالت: حمزة. إياك أن تأذي أدهم.

نظر إليها مبتسماً وقال: ألم أقل لك أنك تحبينه؟ لكن اطمئني يا عزيزتي أنا فقط سألقنه درساً لن ينساه.

انطلق أدهم بسيارته، وبجواره ديما متجهان إلى مدينة السادس من أكتوبر، وبينما هما في الطريق ظهرت سيارة ميكروباص بها ستة شباب يقوم قائدها بالاقتراب من سيارة أدهم، ووجه الشباب لأدهم السباب والإهانة

فأخذ أدهم يوبخهم، وسيطر الخوف على ديما، وأخذت تطالب أدهم بعدم الالتفات إليهم، وتجاهلهم.

شعر أدهم بخوف ديما فرضخ لرجائها، وأغلق زجاج نوافذ السيارة وزاد من سرعتها لكن السيارة الميكروباص ظلت تطارده وتحتك بسيارته عدة مرات، وسيطر الخوف الشديد على ديما، وأشار أحد الشباب من داخل الميكروباص لأدهم بإيقاف السيارة لكن أدهم استمر في القيادة، ومحاولة تفادي الاحتكاك بسيارة هؤلاء البلطجية لكن دون فائدة فلقد صدمت السيارة الميكروباص سيارته من الخلف ثم تمكن قائدها من مجاورة سيارة أدهم فاحتكت السيارتان ببعضهما، فقام أدهم بإيقاف سيارته، وهبط منها متجاهلاً صراخ ديما، ونداءها عليه.

وتوقفت السيارة الميكروباص على جانب الطريق، وهبط منها الشباب الستة، وأمسك بعضاً منهم بعصا غليظة، والبعض الأخر يمسك بجنازير حديد.

قال أدهم بغضب: ماذا تريدون؟

قال أحدهم: نريد تعليمك الأدب حتى تعرف كيف تعامل أسيادك.

دهش أدهم وقال: وهل أنتم أسيادي أم الذين أرسلوكم؟

أقترب الرجال الستة منه، وقال أحدهم: يبدو إنك كثير الكلام لذلك سنحطم أسنانك، ونقطع لسانك.

قال أدهم: أخبرني بكم اشتراكم من أرسلكم لي؟ أنا مستعد أن أدفع لكم ضعفي ما وعدكم به.

قال أحدهم: هل ستعطينا خمسون ألفاً؟

قال أدهم: نعم سأعطيكم. حقيبة النقود داخل حقيبة السيارة. هيا تعالوا خذُها.

أقترب الشباب الستة من مؤخرة السيارة، وقام أدهم بفتح حقيبة السيارة، وأخرج منها أنبوب إطفاء حريق، وفي سرعة مفاجئة أخذ ينثر بُدرتها على وجوه البلطجية ثم قام بلكم أحد الشباب، وأخذ منه الجنزير الحديد، وأخذ يطيح في الشباب الذين لم يستطيعوا مجاراته لتمكنه في لعبة الكاراتيه، ولم يجد الشباب بد من الإسراع إلى سيارتهم، والهرب بها.

تأنق أدهم بشدة، وذهب مع والدته بصحبة العميد كامل إلى بيت عمه المهندس توفيق ليخطب منه ديما، واستقبلهما المهندس توفيق وزوجته ماجدة بترحاب شديد، وخاض الجميع حديث الذكريات إلى أن أتت القرصة للدكتورة نادية في التحدث عن طلب خطبة ديما إلى أدهم وقالت:

_ المهم يا باشمهندس لقد أتينا اليوم لكي نطلب منك خطبة ديما إلى أدهم. أنت تعلم أخلاق أدهم جيداً، وأنه هذا العام في السنة النهائية في كليته و..

قاطعها المهندس توفيق قائلاً: لا تحدثيني عن أدهم يا دكتورة فأنا أعلم عنه كل شيء. إنه ابن أخي الوحيد وليس شخصاً غريباً عني.

ابتسم أدهم لكلام عمه هذا لكن ظل القلق ينتابه، واستطرد المهندس توفيق كلامه قائلاً: أدهم هو ابن لي مثلما هو ابنك يا دكتور، ولكن موضوع

الزواج من ديما هذا لن أستطيع أن أوافق عليه. أنا آسف يا أدهم لا تغضب مني لكن هناك أشياء تحول دون إتمام هذا الزواج فأنت أبن عمها مباشرة، وعادة زواج الأقارب من الدرجة الأولى مثل هذا ينتج عنه ذرية مريضة ضعيفة، ومؤكد أنتِ تعلمين هذا الكلام جيداً يا دكتور.

قال العميد كامل: ولكن الطب تقدم كثيراً يا باشمهندس، ومؤكد هناك احتياطات طبية يتم أخذها قبل إتمام مثل هذا الزواج.

قال المهندس توفيق: وهل سأضع مصير أحفادي تحت رحمة تجارب طبية يا كامل؟ لقد رأيت بنفسي كثير من الحالات المرضية نتيجة لزواج الأقارب. أنت لا يرضيك يا كامل، ولا يرضيك يا دكتور أن يكون لديما وأدهم أبناء معاقون ذهنياً أو جسدياً، أو لديهم مرض في الدم. هل ستستطيعين تحمل رؤية ذلك يا دكتور؟ لو أنتِ تستطيعين التحمل فأنا صراحة لا أستطيع، ولن أقبل بذلك أبداً. شعر أدهم بصدمة كادت أن تعصف بقلبه، وكادت دموعه أن تنساب على وجهه لولا استشعاره بالحرج من الحاضرين.

قال العميد كامل: ما رأيك أن نعرضهما على طبيب متخصص لنرى ماذا يقول؟

قال توفيق: أنا لن أعرّض ابنتي لهذا الأمر. ما الذي يجبرني على ذلك؟

قال أدهم والدموع بدت واضحة في عينيه: يا عمي..

لم يعطه المهندس توفيق فرصة للكلام وقال: أدهم حبيبي. ركز في دراستك. نريد أن نراك إعلامياً لامعاً.

شعر أدهم إنه لا فائدة من الحديث مع عمه، وشعر إنه لن يستطيع إيقاف دموعه عن الانهمار فأسرع بمغادرة المكان، والدموع تنساب على وجهه بغزارة، وهرولت والدته خلفه وهي تنادي عليه.

****

جلست ديما في غرفتها تبك بشدة، وتفيض دموعها أنهاراً، ودلفت إليها والدتها قائلة: أمازلتِ تبكِ يا ديما؟ لقد فعل والدك هذا لمصلحتكما أنتما الإثنان.

قال ديما ببكاء: مصلحتي هي الزواج من أدهم، وليس من حق أبي أن يفرض رأيه على هكذا.

قالت الأم بحنان: والدك فعل ما يراه صواباً.

قالت ديما ببكاء: وما هو الصواب في ذلك؟ أن يحرمني من الشخص الذي يحبني أكثر من نفسه؟ لقد ظلمني، وظلم أدهم، وليكن في علمكما إن لم أتزوج أدهم فأنا لن أتزوج أبداً.

ابتسمت الأم وقالت: يا حبيبتي أكثر الفتيات عندما تحب تقول لحبيبها إنه من المستحيل أن تكون زوجة لشخص غيره لكن في النهاية يتزوجون شخص آخر، وعندما يمر بهن الزمان يضحكن على ما كن يقولونه.

اتصلت ديما بأدهم وهي تبك وقالت له: إياك أن تتخلى عني يا أدهم. مهما فعل والدي لابد أن نظل معاً. أنا لا أتخيل أن تكون حياتي بدونك.

قال أدهم: وأنا لن أتخلى عنكِ أبداً يا ديما. لو تخليت عنك أكون تخليت عن روحي، وسعادتي.

قالت ديما: وماذا سنفعل؟

قال أدهم: أمي والعميد كامل أخبراني إنهما سيكرران المحاولة مع المهندس توفيق.

قالت ديما: أرجو أن يتمكنا من إقناعه. لقد امتنعت عن تناول الطعام حتى أجبر أبي على الموافقة.

قال أدهم: ألهذه الدرجة تحبيني يا ديما؟

قالت ديما: لعلك تقدر تضحيتي من أجلك فيما بعد.

بينما العميد كامل يجلس في مكتبه فوجئ بديما تتصل به وتقول له متوسلة:

_ أرجوك يا عمي أن تحاول إقناع والدي بزواجي أنا وأدهم.

ابتسم كامل وقال: إلى هذه الدرجة تحبينه؟

شعرت ديما بالخجل وقالت: أن ما يربطني بأدهم ليس مجرد حباً. إن ما يربطني بأدهم أنه توأم روحي كأنه هو أدم وأنا حواء التي خلقت من ضلعه، ويكمل كل منا الآخر.

قال العميد كامل: المشكلة يا ديما أن والدك عنيداً للغاية، ومازالت تجري في عروقه دماء الرجل الصعيدي الذي ينفرد برأيه، وقراره حتى ولو كان خاطئاً، ولكن اطمئني فسأحاول معه مرة ثانية، ولن أتركه حتى يوافق على زواجكما.

ابتسمت ديما ابتسامة واسعة فلقد أعطتها كلمات العميد كامل كثير من الأمل، ومن الحياة.

ذهبت الدكتورة نادية إلى بيت المهندس توفيق لإثنائه عن قراره برفض زواج أدهم وديما لكن المهندس توفيق أصر على موقفه قائلاً: إنهما مازالا صغيران. الحب يعمي بصيرتهما، ولا يجعلهما يعرفا مصلحتهما، إنهما ينظران تحت أرجلهما، وليست لديهما نظرة إلى المستقبل عندما يتزوجا وينجبا أطفالاً مرضى، أو معاقين يجعلانهما يتعذبان في كل نظرة إليهم، ووقتها سيشعران بأشد الندم على هذا الزواج.

قالت نادية: دعنا نعرضهما على طبيب مختص ونرى ماذا يقول.

قال المهندس توفيق: وما الذي يدعونا لذلك، وتعريض ابنتي لهذه السخافات. أقنعي أدهم يا دكتورة بالالتفات إلى مستقبله أفضل.

قالت نادية بحزن: أهذا آخر كلام لديك يا باشمهندس؟

قال توفيق بهدوء: أعلم إنك غاضبة مني يا دكتور لكن تأكدي إني أفعل هذا من أجل مصلحة الأولاد.

بعد أن عاد العميد كامل إلى منزله جلس معه حمزة وقال له:

_ هل حقاً عمي توفيق رفض طلب أدهم بالزواج من ديما؟

قال كامل: نعم.

قال حمزة: إذن يمكنني الآن التقدم لها.

قال كامل منفعلاً: ما هذا الذي تقوله؟ هل أنت عديم الإحساس والشعور إلى هذه الدرجة؟ الفتاة تحب شخص آخر غيرك ورغم ذلك تريد الزواج منها.

قال حمزة: أنا أعرف كيف سأجعلها تنسى هذا الولد التافه، وتحبني بعد ذلك.

قال كامل بغضب: أدهم ليس تافهاً. أدهم شاب محترم ومؤدب وسينتهي هذا العام من دراسته في كلية الإعلام.

قال حمزة دهشاً: أنا لا أفهم سر دفاعك الدائم عن هذا الولد. أنت تدافع عنه كما لو كان ابنك.

نظر إليه كامل للحظات ثم قال: إن والده له دين كبير لدي، ومهما فعلت لن أستطيع سداد هذا الدين. كما إني اعتبر نفسي بالفعل مثل والده، وهو أيضاً يعتبرني هكذا فهل يجوز بعد ذلك أن أزوج ابني للفتاة التي يحبها؟

قال حمزة منفعلاً: أنت تخشى على شعوره، ولا يهمك ما أشعر أنا به؟ هل أصابك الزهايمر يا أبي فنسيت من هو ابنك؟

قال كامل منفعلاً: اخرس. أنت وقح وقليل الأدب.

قال حمزة: أنا آسف يا أبي، ولكن أنت بهذه الطريقة ستجعل كراهيتي تجاه أدهم تزيد أكثر، وستزداد عداوتي له.

صمت كامل، وأخذ ينظر إلى حمزة ثم قال: حاضر يا حمزة. سأنفذ لك رغبتك.

وارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي حمزة.

خرجت ديما من كليتها ففوجئت بحمزة ينتظرها، وطلب منها أن تركب معه السيارة ليحدثها في أمر هام فرفضت ديما لكنه أخذ يلح عليها حتى وافقت، وانطلق حمزة بالسيارة، وبالقرب من نيل حي الزمالك أوقف حمزة سيارته، وقال: المكان هنا هادئ، ويمكننا الحديث.

امتعضت ديما وقالت: ما الذي تريد قوله يا حمزة؟

قال حمزة: لماذا تعامليني بهذا الجفاء يا ديما؟ ما الذي فعلته لأستحق منك هذه المعاملة السيئة؟

قالت ديما: قل ما تريد بسرعة يا حمزة حتى لا تأخرني عن العودة إلى البيت.

قال حمزة: حسناً يا ديما. لقد قررت أن آت لخطبتك. أنا أحبك كثيراً، وسأكون أسعد شخص في العالم عندما تصيرين ملكاً لي.

قالت ديما بغضب: ملكاً لك!؟ هل تظنني دمية ستلهو بها؟ أنا آسفة يا حمزة لن أستطيع أن أكون ملكاً لك.

قال حمزة: اعذريني يا ديما لقد خانني التعبير لكن تأكدي عندما نتزوج أنت التي ستملكينني، وستملكين قلبي، وروحي، وعمري.

قالت ديما: أنا آسفة يا حمزة. أنت تستحق فتاة أفضل مني ألف مرة، ولكن أنا لا أفكر في هذا الموضوع الآن.

قال حمزة بغضب: لا تفكري في هذا الموضوع أم إنك تحبين هذا الولد التافه المسمى أدهم؟

قالت ديما بتحد: رغم أن ذلك ليس من شأنك لكن نعم أحب أدهم وسأتزوجه.

وفتحت باب السيارة، وهمت أن تغادرها لكن حمزة أمسك بيدها قائلاً: سيكون هذا على جثتي أو ربما جثتكما أنتما الإثنان.

نظرت إليه ديما نظرة قاسية، وترك حمزة يدها فغادرت السيارة وأغلقت بابها في قوة.

جلس أدهم مهموماً مع والدته وقال: ما فائدة الحياة طالما نعيشها وقد حرمنا ممن نحبهم، الذين لا نشعر بالسعادة، وطعم الحياة إلا معهم.

قالت نادية وهي تحتضنه: لا تقل هذا الكلام يا أدهم. أنا لا أحب أن أراك محبطاً هكذا.

قال أدهم: أنا بالفعل لن أستطيع الحياة دون وجود ديما جواري. ديما هي شمسي التي تعطيني الدفء، هي الماء الذي يرويني ويعطيني الحياة، ديما هي الروح التي إن فارقتني فارقت الحياة غير آسفاً عليها.

أخذت نادية تنظر إلى أدهم بصمت ثم قالت: ديما ستكون لك يا أدهم. تأكد من ذلك. ثق في كلام أمك.

****

اتصل أحد المحامين بالمهندس توفيق يطلب مقابلته لأمر هام وخطير، وبالفعل آتى ذلك المحام، وجلس مع المهندس توفيق في حجرة مكتبه، وكان المحام رجل يبدو عليه الوقار، وأنه في منتصف العقد الخامس من عمره.

قال المحام: أنا فوزي منصور محامي الدكتور محمود شقيق سيادتك الراحل.

قال توفيق دهشاً: محامي شقيقي محمود! خيريا أستاذ؟

قال المحامي: في الحقيقة أنا أعتذر لك جداً لأن زيارتي هذه كانت يجب أن تكون فور وفاة المرحوم محمود.

قام المحام بفتح حقيبته الجلدية السوداء الصغيرة، وأخرج منها خطاب مغلف واستطرد قائلاً: هذا الخطاب وصاني الدكتور محمود قبل وفاته أن أوصله إليك في حالة وفاته

لكن للأسف وقت وفاته كنت مسافر خارج مصر، وعندما عدت لم أعلم بوفاته ثم تركت مكتب المحام الذي كنت أعمل لديه بعد أن حدثت بيننا بعض الخلافات، وأخذت أبحث عن مكتب آخر لكن في النهاية قررت أن أفتح مكتب خاص بي، ووسط كل هذه الظروف التي مرت بي نسيت تماماً أمر الدكتور محمود، وخطابه إلى أن وجدته من يومين بالضبط عندما كنت أراجع بعد الأوراق القديمة، وتذكرت توصية الدكتور محمود بأن أسلمك إياه.

تناول المهندس توفيق الخطاب من يد المحامي قائلاً: وماذا يحمل يا ترى هذا الخطاب؟

نهض المحام من مجلسه قائلاً: ليس عندي علم بذلك. فهذه أسرار عميل، والآن استأذنك في الانصراف، وأرجو أن تتقبل اعتذاري مرة ثانية على تأخير الخطاب.

بينما تجلس نادية مع أدهم يشاهدان أحد الأفلام رن هاتفها المحمول فنظرت إلى شاشته ثم قالت: إنه عمك. أرجو أن يكون عدّل عن رأيه.

وقامت نادية بالرد على المهندس توفيق الذي تحدث إليها بانفعال شديد وطالبها بالحضور إليه في الحال ثم أغلق الهاتف فتملكت الدهشة من نادية، وبدت الحيرة على وجهها فقال لها أدهم: ما الموضوع يا أمي؟ لماذا تغير وجهك هكذا؟

قالت نادية: عمك يريدني أن أذهب إليه الآن، وكان يحدثني وهو منفعل للغاية فلست أدري ما الذي: حدث.

ظهرت الدهشة على أدهم وقال: هل ستذهبين إليه الآن؟

قالت نادية وهي تنهض من مجلسها: نعم.

قال أدهم: هل أذهب معك؟

قالت نادية وهي تداعب شعر أدهم: لا يا حبيبي أبق أنت هنا، ولا تقلق.

وصلت نادية إلى شقة المهندس توفيق فرحبت بها زوجته التي قالت: توفيق ينتظرك في مكتبه.

دلفت نادية، ومعها زوجة الحاج توفيق إلى حجرة المكتب فقال توفيق منفعلاً محدثاً زوجته: دعينا بمفردنا يا حاجة.

خرجت الزوجة من غرفة المكتب بينما بدا القلق على وجه نادية وقالت: خيريا باشمهندس؟

نظر إليها توفيق بغضب شديد، وأمسك بالخطاب، وألقاه إليها قائلاً بانفعال: ما تعليقك يا مدام على كلام محمود الذي كتبه في هذا الخطاب؟

أمسكت نادية بالخطاب وأخذت تقرأ فيه، وعلامات الدهشة على وجهها تتزايد ثم قامت بتجميع الخطاب في قبضة يدها وهي تقول: ما هذا الكلام الفارغ؟

قال توفيق منفعلاً: كلام فارغ!؟ أليس هذا خط محمود أخي؟

قالت نادية: أنا لا أتذكر خط محمود لكن كيف وصلك هذا الخطاب؟

قال توفيق: وهل هذه هي المشكلة كيف وصل لي الخطاب؟ هيا أخبريني ما حقيقة هذا الكلام، ولا تكذبي.

قالت نادية: هذا الخطاب مزيف بكل تأكيد فكل الكلام الذي به غير حقيقي.

قال توفيق منفعلاً: كاذبة. لقد تأكدت من الحاجة زوجتي إنك أنجبتِ أدهم بالفعل بعد ستة أشهر فقط من زواجكما. إذن فأدهم بالفعل ليس ابن محمود.

قالت نادية وهي تكاد تبك: هذا كذب، وغير حقيقي لقد أنجبت أدهم بعد سبعة أشهر. صدقني يا باش مهندس أدهم ابن محمود مثلما هو ابني.

قال توفيق: أين قسيمة زواجك من محمود؟

بدا الإرتباك على نادية وقالت: قسيمة الزواج! لقد ضاعت مني.

قال توفيق بغضب: ضاعت منكِ أم إنك تخفيها؟ أنظري يا نادية أنا لن أقيم دعوى قضائية لإظهار عدم أحقية أبنك في الحصول على ميراث شقيقي محمود لكن أريدك أن تبتعدي أنتِ وابنك عن ابنتي ديما، فاخبري ابنك ألا يقترب منها أو يتحدث إليها أبداً، وإلا فسيكون لي تصرف آخر معكما أنتما الإثنان. تصرف لن يرضيك أبداً.

سقطت الدموع من عيني نادية وقالت: يا باشمهندس أرجوك صدقني..

لم يعطيها توفيق الفرصة لتكملة حديثها فقال: انتهت المقابلة. تفضلي اذهبي. مع السلامة.

خرجت نادية من حجرة مكتب المهندس توفيق والدموع تملأ عينيها، فأسرعت إليها ديما قائلة: ما الذي حدث يا طنط، ولماذا تبك؟

خرج إليهما توفيق وقال منفعلاً: أرأيت يا أنسة ديما من كنتِ مضربة عن الطعام لأجله؟ لقد اتضح إنه ليس ابن شقيقي محمود، والدكتورة المحترمة كانت تخدعنا كل هذه السنوات حتى ترث هي وابنها أموال محمود والصيدلية. قالت ناديه ببكاء: أرجوك يا باشمهندس لا داعي لهذا التجريح. فكل هذا الكلام كذب وافتراء. هناك من يريد الوقيعة بيننا أقسم لك.

قالت ديما: طنط نادية لا يمكن أن تفعل هذا يا أبي. مؤكد هناك من يريد الوقيعة بينكما.

قال توفيق منفعلاً: اخرسي أنت، واذهبي إلى غرفتك، وإياك أن تتحدثي مع هذا الولد مرة ثانية حتى لا أقوم بإحراجه وإهانته.

قالت نادية بتوسل: لأ يا باشمهندس أرجوك. حتى لو هذا الكلام حقيقي فأدهم ليس له ذنب فيه.

وقام المهندس توفيق بطردها من الشقة وسط بكاء ديما، وانهمار دموعها بغزارة فلقد شعرت إن قصة عشقها لأدهم قد حانت نهايتها. نهاية سوداء حزينة.

عادت نادية إلى شقتها، وهي تحاول التماسك أمام أدهم الذي كان يجلس في غرفته ثم هرول إليها ما أن سمع صوت باب الشقة يغلق، والتقى بوالدته وقال لها: ماذا كان يريد عمي يا أمي؟

صمتت نادية ولم تجبه فاستطرد أدهم قائلاً وقد تملك منه القلق: هل حدث شيئاً؟ تكلمي يا أمي.

انسابت الدموع على خديها ثم قالت بصعوبة، وبشفاه مرتعشة: انسى ديما يا أدهم.

وقعت الجملة كالصاعقة على أدهم الذي قال: أنسي ديما!؟ لماذا يا أمي. ماذا حدث؟

توجهت نادية إلى غرفتها بينما تسمر أدهم مكانه تكاد تقتله الحيرة، والظنون.

****